التراث وفقه العمران (شوارع مدينة تنس وطرقاتها نموذجا)

أ/ الحاج صدوق
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

الملخص:

برزت الشوارع والطرق في مدينة تنس كمحور رئيسي في التخطيط منذ فجر التاريخ، ونما وتطوّر تخطيط المدينة بنمو الحضارات المتعاقبة عليها، وعكس تخطيط شوارع المدينة المستوى الحضاري الذي ساد مراحل التاريخ الإنساني المتعاقبة. وتنوعت تخطيطات مدينة تنس بتنوّع واختلاف المظاهر الحضارية من عصر إلى آخر، وأصبح تخطيط شبكات الطرق في المدينة من بين الأسس التي تصنّف عليها نوعيات تخطيطات المدينة قديمها وحديثها.

وتأصلت العلاقة الوظيفية بين شوارع وطرق المدينة وتكويناتها المعمارية الرئيسية منها والثانوية على حد سواء، وتشير الدراسات المعمارية والاجتماعية والجغرافية والأثرية إلى أهمية الشوارع بصفة عامّة.

إنّ نشأة المدينة كان لامتداد التعاون والتفاهم في داخل القرية الواحدة إلى القرى القريبة منها والمجاورة لها، فتنشأ طرق

القوافل للتبادل التجاري، وإذا تقاطعت الطرق صارت نقطة هامّة تجلب إليها الناس، بعضهم جاء للتبادل التجاري، وبعضهم للشراء، وبعضهم الآخر يتخذها مقرّه الدائم، ويعتمد في معيشته على خدمة المسافرين أو على حرف يدوية وإنتاج، فتكوّنت عند مقاطع الطرق مراكز للتبادل التجاري، وثم كبرت واشتهرت فجذبت إليها أعداداً أكبر من الناس فنمت إلى بلد وإلى مدينة، فأحيطت بالأسوار من أجل الدفاع عنها.

ويشير علماء الاجتماع إلى أهمية النقل والاتصالات في إحداث التفاعل البشري الذي يؤدي إلى نمو المدينة، ومن الناحية الأثرية فإنّ بداية ظهور الشارع الذي تصطف على جانبيه المنازل كان له دلالاته الاجتماعية والسياسية الهامّة.

إنّ شوارع وطرق مدينة تنس تمثل أهم جوانب تخطيطها الذي يعني تنسيق النظام المادي والطبيعي لها، والذي تمثّله كتلتها المبنية، وارتباطها بتجمعها الحضاري ومرافقها وخدماتها في انسجام وتوافق مع الحاجات الاقتصادية والاجتماعية لسكانها.

- مقدمة:

للمدينة دلالاتها الجغرافية كما لها دلالاتها الاجتماعية والاقتصادية والمدينة بذلك تصبح جسماً واحداً تتكامل فيه الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والجوانب العمرانية ومن الصعب فصل جانب منها عن الآخر، حيث أنّ الجوانب الثلاثة هي المكونات الأساسية للمدينة، وكثيراً ما تسهب البحوث والدراسات في شرح جانب دون التعرّض إلى الجانب الآخر. وإذاكانت النظرية التخطيطية في هذه الحالة تتعرض للنواحي العمرانية فليس ذلك إلا نتيجة طبيعية لتفاعل الجوانب الاجتماعية بالجوانب الاقتصادية وإفرازها للصورة العمرانية للمدينة بمبانيها وطرقاتها وساحاتها ومرافقها العامة، فإنّه من الصعب فصل الإنسان عن العمران عند التعرّض للمفهوم الحقيقي للمدينة.

وإذا كان الإسلام هو الموجّه لحياة السكان في المدينة بما فيها من نظم اقتصادية وعلاقات اجتماعية فإنّ ذلك سوف ينعكس بالنتيجة عن الوجه العمراني للمدينة. لذلك فإنّ التعرّض لمقومات المدينة الإسلامية لا بد وأن ينطلق من ينابيع الدين الإسلامي في القرآن الكريم والسنّة المحمدية، لذلك فإنّ مفهوم المدينة الإسلامية ينبع أساساً من التزام مجتمعها بالقيم والتعاليم الإسلامية التي تنعكس بالنتيجة على هيكلها العمراني.

لقد جاء ذكر المدينة في القرآن الكريم في أكثر من موضع. وقد وردت كلمة المدينة في القرآن الكريم بمدلولها الجغرافي أي البلد التي تجمع المنازل والأسواق والطرقات وجمعها مدن أو مدائن.

لقد جاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي أصدره المجمع اللغوي بالقاهرة «... وتكرر ذكر المدينة في القرآن الكريم مراداً بها في جملتها مدينة معيّنة وقد نصل إلى العلم بها، وقلّما نصل إلى ذلك، وإنّما فيها بعض الروايات التي لا تبلغ القطع واليقين».

1-تعريف المدينة:

الكلمة كما جاء في لسان العرب مشتقة من مَدَن بالمكان أي أقام به [1]. وهو الاسم الذي سمّى به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يثرب التي هاجر إليها ووصف بعد ذلك بالمدينة المنوّرة. ويعرف البعض من المسلمين المدينة بأنّها البلد التي يكون بها مبنى، والمقصود بالمعنى هنا هو المسجد الجامع الذي تقام فيه صلاة الجمعة[2]. كما أنّ بعض الفقهاء ولا سيما الأحقاف منهم، كما يقول الشيخ طه الولي في مقاله عن المدينة في الإسلام (مجلّة الفكر العربي 29) يشترطون أن لا تقام الجمعة إلا في المدن التي تقام فيها الحدود وعلى هذا يمكن أن تعرف المدينة في الإسلام بأنّها المكان الذي نستوفي فيه أسباب العدل والأمن أكثر من أي مكان آخر لكونها المقر المركزي للسلطة الحاكمة سواء الخليفة في الدولة أو الوالي في الإقليم. ويقول ابن خلدون في مقدّمته: «إنّ الحضارة في

الأمصار –بمعنى المدن- من قبل الدول وإنّها –أي الأمصار- ترسخ باتصال الدولة وسوقها...».

في كتابه المدينة الإسلامية، يشير الدكتور محمد عبد الستار عثمان إلى تعريف المدينة كقول ابن المنظور إنّ المدينة هي «الحصن يبني في اصطمه من الأرض وكل أرض يبنى عليها حصن في اصطمتها فهي مدينة» ويقول إنّه بهذا التعريف يثير صراحة إلى أنّ المدن لا تقام إلا في حالة تواجد الهيئة الاجتماعية، ويقول المؤلف أيضاً «وقد اعتبر الإسلام الهيئة الاجتماعية المستوطنة وساعد على إبرازها، وبعكس ذلك –كما يقول- آراء الفقهاء بعدم جواز الصلوات الجامعة إلا في الأمصار. فقد جاء عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم قوله "لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع"». وفي حديث آخر «إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة». وهنا يجدر البحث عن مفهوم المصر الجامع أو المدينة العظيمة بالمقياس الذي كان سائداً أيام الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإمكانية تطبيقه في الوقت الراهن. وإذا كان حجم المدينة في ذلك الوقت لا يتعدّى عدداً قليلاً من السكّان قد يصلوا إلى حجم الحي أو المجاورة السكنية بالمفهوم المعاصر، فإنّ ذلك يستدعي تحديد حجم الحي أو وحدة الجوار من هذا المنطلق.[3]

للمدن طبقات من الناحية الإدارية وفقاً لما كان عليه وضعها في العصور الإسلامية المتقدمة وكانت بالترتيب التنازلي كالآتي: الأمصار- القصبات- المدن- أو المدائن- النواحي- القرى.

فالأمصار جمع مصر بالمفهوم الإداري الإسلامي القديم هي البلاد التي يقيم فيها السلطان أي رئيس الدولة –وتجتمع فيها الدواوين وتقلد فيها الأعمال وتضاف إليها مدن الأقاليم أي تتبعها بقية الوحدات الإقليمية الأخرى التي يتألف منها القطر. أمّا القصبات وهي جمع قصبة فقد استعملها المسلمون في الاصطلاح الإداري الإسلامي بمعنى عواصم الإقليم العمرانية هذا في الوقت الذي كان يطلق فيه اسم القصبة على القسم الرئيسي للقصبة أو وسط القرية. ومن هنا جاءت تسمية المحور الرئيسي للمدينة بالقصبة حيث المركز الإداري والنشاط التجاري والتعليمي والحرفي والديني[4].وتأتي بعد ذلك المدن أو المدائن وهي في الاصطلاح الإداري الإسلامي تطلق على ما يلي القصبة في الأقاليم ومقامها مقام الجند عند الملوك أي الضواحي. أما النواحي فهي في الاصطلاح الإسلامي كانت تطلق على الجهة أو المنطقة التابعة لغيرها من الوحدات الإقليمية الأكبر منها. وتأتي بعد ذلك القرى جمع قرية وقد جاء ذكرها كثيراً في القرآن الكريم بمعنى يختلف من حين لآخر وفقاً للمناسبة التي أنزلت فيها الآية الكريمة التي تتضمنها ومنها القرية بمعنى البلدة الكبيرة الأقل من المدينة ومنها ما يراد بها مجازاً الناس الذين يقيمون فيها.

2- مدينة تنس من خلال المصادر:

تعد مدينة تنس من المدن الجزائرية القديمة حيث استعملها الفينيقيون والقرطاجيون كمحطة تجارية (Heurgon, J.

1958, 15) وذلك قبل التاريخ الميلادي، على غرار المدن الساحلية الأخرى مثل شرشال وتيبازة وعنّابة.

وورد ذكر مدينة Cartennae في جغرافية بطليموس، وذكرها عزال (Gsell, S. 1997: F.12, M:2) وعثر بها على كتابة كتب عليها « Cartennae colonia AugustuLegio secunda» ويفهم من هذه الكتابة أنّ المدينة بنيت من طرف الفرقة الأوغستية الثانية بأمر من الإمبراطور سنة 30 ق.م. (Heurgon, J. 1958, 15)، وتكون قد ارتقت إلى مدينة أو مرتبة مستوطنة لقدماء الجنود على عصر الإمبراطور أغسطس بناءً على ما يفهم من هذه الكتابة.

كما اعتبرت محطة هامة لفرق عسكرية أخرى فيما بعد أمثال فرقة باقونياوجيرمانيكا (Germanie) و (Pannonie) والدور الكبير الذي قامت به هذه الفرق في صد هجمات قبائل البقواط عبر المنطقة الممتدة بين مستغانم (Quiza) والجزائر (Icosium).

خلال الحفريات التي قام بها الفرنسيون في الفترة الاستعمارية تم العثور على العديد من المخلفات الأثرية خاصة في الجزء الغربي منها الكنز المعروف (trésor de thèmes) الذي اكتشف سنة 1936م متكوّن من 19 قطعة (Heurgon, J. 1958, 20) من فضة وذهب وبرونز تحمل إشارات ورموز مسيحية تعود للقرن الخامس الميلادي.

كما جاء اسم المدينة ضمن قوائم المجمع الأسقفي لسنتي 411 و484 تحت اسم Epicopatus-Cartenatius.

ونظراً لمكانة هذه المدينة فقد عاشت أطوار الصراع العنيف بين أنصار الكنيسة الرسمية (الكاثوليكية) وأنصار الكنيسة الدوناتية، وهو الصراع الذي أدى إلى انبثاق فرقة ثالثة وهي الفرقة الروقاتية بقيادة روقاتوس (Rogatus).

في سنة 122م تعرّضت المدينة إلى التخريب والحرق من طرف قبائل البقواط الذين تمكنوا من تحطيم نصب تذكاري أقامه سكّان المنطقة أو المدينة على شرف FulciniusOplatus على عهد الإمبراطور هادرياتوس (الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التذكارية التاريخية، 2000: 11).

يعتبر ابن حوقل [5] المتوفي سنة 367هـ/978م أول من قدّم وصفاً لموقعها الذي تزامن مع مرور مائة سنة على تأسيسها خلال عام 262هـ/875م، فبيّن ميزة موقعها الذي يجمع بين الساحل والجبل وتحصينها بسور فتحت منه مجموعة من الأبواب. وبعده بسنتين قليلة جاء المقدسي [6] المتوفي عام 378هـ/988م يوصف مختصر جدّاً اقتصر على ذكر موقعها القريب من البحر وسورها ومصدر حصولها على الماء.

وفي خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وصف البكري [7] المدينة وركّز على الموقع الذي بيّن الكثير من ميزاته، كالمسافة الفاصلة بينه وبين البحر والوادي المحيط به من ثلاث جهات، وأبرز بعدها تحصينها بسور فتحت فيه خمسة أبواب،

بابان في جهة القبلة (الجنوب) وباب البحر وباب ابن ناصح في الغرب وباب الخوجة في جهة الشرق.

ومع بداية القرن السادس الهجري ذكر الإدريسي[8] خصوصيات موقعها الذي كان قريباً من البحر ويجمع بين السهل والجبل ويخترقه وادي قادم من الشرق وأشاد بتحصيناتها قائلاً «وقد أحاط بها السور وهي مدينة قديمة أزلية عليها سور حصين وحظيرة مائعة دائرة بها».

وخلال نفس القرن ظهر جغرافي آخر مجهول الاسم ألّف كتاباً سمّاه "الاستبصار في عجائب الأمصار"[9] تكلّم عن موقعها فقال «بينها وبين البحر ميلان ولها نهر يسمّى تامن يأتيها من جبال القبلة ثم يستدير بها من جهة الشمال في الجوف ويصب في البحر...» ثم ذكر سورها. أمّا القزويني[10] المتوفى سنة 682هـ/1283م فذكر أولاً تحصينها، ثم يبيّن الوادي المحيط بها. ووصف حسّان الوزّان[11] الذي أنهى كتابه سنة 933هـ/ 1526م المدينة وخص موقعها ببعض الكلمات، وقال بأنّها بنيت على منحدر جبل قريب من البحر، ثم تحدث عن السور المحيط بها الذي كان قائماً في عصره رغم مرور السنين على نشأته، وتزامناً معه أو بعده بفترة قصيرة قدّم مارمول وصفاً آخر حيث قال فيه «مدينة عتيقة بناها سكّان البلاد الأصليين على سفح جبل تحصنها أسوار وقلعة».[12]

3-شوارع مدينة تنس وطرقاتها في العهد الإسلامي:

لقد تأصلت العلاقة الوظيفية بين شوارع وطرق المدينة وتكويناتها المعمارية فبرزت كمحور رئيسي في التخطيط لنشأة مدينة تنس الإسلامية، كنتيجة حتمية لامتداد التعاون والتفافهم داخل القرى والمدن فنشأت طرق القوافل التجارية لتكون مقاطع للطرق لأهداف مختلفة، فتم اعتبار الشوارع هي الأصل في تخطيط مدينة تنس وتفرّعت منها مجموعة من الشوارع الفرعية، حيث اختلفت مقاييس الشوارع وتدحرجت بين الضيق إلى الاتساع.

لقد أخذت الشوارع في مدينة تنس أنواع مختلفة، فمنها شوارع عامة وتكون مستقيمة، وهذا النوع كان قليل في مدينة تنس ما عدا الشارع الرئيس الذي ما زال موجود إلى يومنا هذا والموجود في وسط مدينة تنس الذي يبلغ طوله حوالي 300م وشوارع خاصّة تتسم بالضيق وهي أكثر انتشاراً في المدينة (شوارع مدينة تنس القديمة حالياً الموجود بها مسجد سيدي مغيرة)، بحيث أنّ مقاييس هذه الشوارع الخاصة ترك تحديدها لأصحابها وإذا اختلفت في تحديده يرجع في ذلك لقول المصطفى «إذا تدارأتم في شارع فاجعلوه سبعة أذرع».

إنّ الشوارع التي تم بناؤها في مدينة تنس كان يخضع لظروف طبيعية فوجود مدينة تنس قرب الساحل واعتدال مناخها جعلها اتجاهها يكون من الجنوب إلى الشمال عكس المناطق الحارّة

التي يكون اتجاه شوارعها من الشمال إلى الجنوب لأنّ ذلك يساعد على عدم تعرّض الشوارع وواجهات البيوت للشمس.[13]

لقد تأثر تخطيط شوارع مدينة تنس بنظام التحصينات والأسوار فيها من حيث اختيار الموقع الحصين المرتفع أو المحاط بعوائق مادية انعكس على الطرق الموصلة إليها، كما أنّ الشوارع في هذه المدينة تأثرت بالأسوار المحاطة بها والتي حددت مساحتها وامتدادها وما زالت مدينة تنس تحتفظ ببعض أسوارها التي أثرت في امتداد ومساحة شوارعها، بحيث أنّ السور يمثل أساس العمارة العسكرية والدفاعية، وهو عبارة عن بناء يحيط بالمدينة من جميع جهاتها فيحميها من أعدائها، ويساعد حكامها على تنظيم حياة سكانها.

ويفصل بينها وبين الريف المجاور لها، ويتميّز بضخامته من حيث السمك الذي يتجاوز أحياناً المترين، أمّا الارتفاع فيتراوح ما بين 06 إلى 10 أمتار.[14]

ولم تشذ مدينة تنس عن القاعدة التي دأبت المدن الإسلامية على السير عليها في الإحاطة بسور يحميها من أعدائها، حيث وصل سمك هذا السور إلى 1.80سم[15]، وهذا السمك يحقق غايتين مهمتين هما: الزيادة من متانته ليعرقل محاولات اختراقه من طرف العدو وتوفير المساحة الكافية لإنجاز الشوارع.

4- وظيفة الشوارع في مدينة تنس الإسلامية:

لقد كانت شوارع مدينة تنس تمثل شرايين اتصال وحركة تربط بين تكويناتها المعمارية وترتبط بشكل مباشر بوسيلة النقل المستخدمة وهي الدواب سواء في الركوب أو حمل الأثقال (كما هو الحال بشوارع مدينة تنس القديمة)، بحيث ارتبطت كثافة المرور في الشوارع بكثافة السكان فقد اشتملت على بعض المنشآت على جانبي الشوارع كما كان لهذه الشوارع دور في مواكبة الاحتفالات الاجتماعية كاحتفالات الزفاف والاحتفال بالمناسبات الدينية بالإعلان عن مواكب رؤية هلال شهر رمضان وما يصاحب ذلك من ابتهاج فتعلّق الفوانيس المضاءة فرحاً بمقدم رمضان وحضور صلاة العيد وكذلك مواكب الإعلان عن قرب موعد الحج وموكب خروجه للبلاد المقدّسة.

وكانت الرحبات والعرصات الخالية (باب الرحبة بمدينة تنس القديمة) موزّعة على مخطط المدينة، وكانت تساعد على تسهيل حركة المرور في الشوارع والطرقات التي لا يتحمل اتساعها تقابل دابّتين محملتين، فتقف إحداهما في الرحبة إلى أن تأتي الأخرى إلى الرحبة التي تتسع للاثنتين، ثم تبدأ كل منهما في السير على الطريق إلى أن تصل غايتها.

ممّا سبق يتضح أنّ تولد وظيفة الحمّالين بالمدينة الإسلامية كان مرتبطاً ارتباطاً كبيراً بالطرق والشوارع ونظام

الارتفاق بها، تلك الوظيفة التي حددت لأصحابها مواضع معيّنة بالمدينة قريبة من الأسواق.

وتدل الإحصاءات التي أوردتها المصادر بشوارع مدينة تنس الإسلامية على كثرة قاطنيها وحركة المرور فيها، فقد ذكر اليعقوبي أنّ عدد الشوارع والطرقات «بلغ عددها في المدينة 08 شوارع رئيسية وأكثر من 80 شارع خاص» [16]، وذكر المقريزي أنّه كان بالمدينة 10 شوارع رئيسية وأكثر من 50 شارع خاص [17]، وقد أورد ابن دقماق معلومات تفصيلية عن خطط وحارات ودروب وأزقة تنس تبيّن تفصلاً نوعيات هذه الشوارع والطرق وما اشتملت عليه من منشآت تكشف عن كثافة السكّان، بما يؤكد قول المقريزي إنّ طبيعة النشاط داخل المدينة بصوره المختلفة لها تأثير مباشر في حركة المرور، وتختلف في ذلك مدينة عن أخرى وخصوصاً في حركة الوافدين إليها من إقليمها، أو من المناطق المجاورة لها، والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ودور واضح في ذلك، فنشاط شوارع مدينة تنس وحركة المرور فيها تبدو قليلة إذا ما قورنت بغيرها من المدن الأكثر أهمية.

أثناء الأسواق الأسبوعية تكتظ شوارع المدينة بالناس والباعة الجائلين وأصحاب الحرف الذين يتخذون من محجة الطريق موضعاً لممارسة نشاطهم كالحلاق والقاص [18] والمغنين وأصحاب الألعاب المسليّة والمنادين وغيرهم ممّا يتطلب عملهم

المرور بالشوارع بصفة مستمرة في حركة دائبة كالحمّالين والسقاءين.

وكان الباعة الجائلون من أشهر هذه الفئات، فقد استغلوا الشوارع والطرقات لممارسة نشاطهم التجاري، وقد تنوّع هؤلاء الباعة، فقسم منهم يسيرون في الشوارع والطرقات، ويتحركون ببضائعهم محملة على أكتافهم، أو على الدواب أحياناً، ويصلون بها إلى كل أجزاء المدينة وشوارعها التي يسمح لهم بالتجول فيها، أمّا القسم الثاني فكان يفترش الأرض أمام الحوانيت في الأسواق ويتخذها مقاعد لبيع منتجاته، ومن ثم أطلق «أرباب المقاعد» وغالباً ما تجمع هؤلاء في سوق معيّنة، كما كانت شوارع وطرقات المدينة تمتلئ أحياناً بطوائف أخرى كطوائف جماعات دق الطبول والصنبوح والصفافير وجماعات المنجرين الذين يحرقون البخور في المداخن، إضافة إلى طبقات الأدباء والشعراء.

ومن جهة أخرى تم استغلال شوارع المدينة في التشهير بالخارجين عن القانون فمن كانت جريمته تستوجب التشهير يتم حمله على دابّة وطيف به في شوارع المدينة، أمّا أصحاب الجرائم التي كانت تستوجب القتل مكان التشهير بهم يتم قتلهم وتعليق جثثهم على الأبواب الرئيسية للمدينة حيث يمر العامّة بصورة مكثّفة، وتاريخ باب الرحبة أحد أبواب مدينة تنس القديمة حافل بهذه الأمثلة.

5-أهميّة الشوارع في مدينة تنس الإسلامية:

لقد كانت الشوارع في مدينة تنس كباقي المدن الإسلامية مكاناً لإعلان النداء لأغراض اجتماعية شخصية تهدف إلى مشاركة فئات المجتمع في مناسباتهم الاجتماعية ومكان لإعلان دوران المعمل بحيث تخبر سلطات المدينة من يعتزم الحج الاستعداد له، كما يستغل العامّة مرور موكب الحاكم في الشوارع للتعبير عن مشاعرهم وعرض مطالبهم، كما تم استعمالها كمكان للتشهير بالخارجين على الدولة واستخدام الأجراس والنداء معاً ليزيد من انتباه العامّة بالشوارع فيتحقق الغرض الإعلامي، وعكست الشوارع أحداث الصراع السياسي وكانت مكان لإبراز جرائم هؤلاء الخارجين عن طاعة الملك أو الحاكم.[19]

لقد جاءت شوارع وطرقات مدينة تنس في تخطيطها على شكل قصبة، حيث أنّ الأزقّة فيها قد تنوعّت واختلفت من حيث الضيق والاتساع، فهذه الأخيرة تمثّلت في الأزقة الرئيسية كالطريق المؤدي إلى جامع سيّد مغيرة، وتتراوح اتساعها بين (2.5 و3م)، أمّا الأزقة الثانوية فقد جاءت ضيّقة يتراوح اتساعها ما بين (1.5 إلى 1.6) وهي تلك الموصلة إلى المنازل والأحياء السكنية مثل الطرق التي كانت تتفرع من باب الرحبة في اتجاه المنازل بمدينة تنس القديمة، وتتميّز هذه الأزقّة بأنّها معشبة حيث نجد منها ما هو مغلق والبعض الآخر مفتوح، وقد أدّى هذا إلى اتصال أحياء المدينة ببعضها البعض، إضافة إلى أنّ هذه الميزة تعطي صفة التيهان للشخص

الغريب عن المدينة، كما تغلب على هذه الأزقّة صفتا الانكسار والتعاريج وهذا يلعب دوراً من الناحية الفيزيائية حيث يساعد على انكسار قوة الرياح وتكسير المد البصري من الناحية الاجتماعية [20]، و الزوايا بأشكال هرمية الغرض منها هو عدم تمكين المهاجم من خصمه، إضافة إلى أنّ هذه الأزقّة حوت أدراجاً لكي توصل إلى الناحية العلوية، وجاء هذا طبعاً مراعاة لطبيعة المنطقة، كما نجد أنّ منازل المدينة قد اختلفت في أشكالها من مستطيل إلى مربع وجدرانها منخفضة لا تعلو عن بعضها البعض، فمن الناحية الاجتماعية تعطي نوعاً من الحرمة والاحترام بين الجيران وتساوي المنازل ينم في بعض الأحيان عن تساوي الحالة الاجتماعية، كما احتوت بعض المنازل على حدائق والمعروفة محلياً بالجنان، هذا عن الوصف الخارجي للمنزل، أمّا عن أبواب المنازل فقد جاءت متوسطة الارتفاع أحياناً منخفضة كما أنّها ما زالت تحمل إلى حد الآن سمات الأبواب العثمانية أين نجد عليها أشكالاً هندسية كالنجمة والهلال، زيادة على ذلك فإنّ أبواب منازل مدينة تنس غلب عليها صفة التقوّس، حيث من الصعب أن تجد باباً لا يعلوه قوس وكما أنّ الأبواب جاءت ذات مصراع، وهي مصنوعة من الخشب.[21]

لقد كانت شوارع مدينة تنس وطرقاتها بعد الفتح الإسلامي تعكس المستوى الحضاري الذي يسود في مراحل التاريخ، وفيما تعكس الشوارع في كل المدن مدى ترابط التخطيط مع الحاجات

الاجتماعية والاقتصادية لسكّانها، فإنّ مدينة تنس كانت تتميّز بتأثير القيم الإسلامية عليها، فحتى الطريق الذي حدد الفقهاء بارتفاع شخص يركب دابة يمر بسهولة أسفل البناء، ويكون هناك فراغ يعلوه يؤمّن سلامة المارّة، تمت مراعاته إضافة للحاجات الأخرى ممّا أعطى المدينة تميّزاً.

كانت أسوار مدينة تنس تحد من اتساع البناء فيها، ولذا توجّه الناس للاتجاه الأفقي، فطرقات مدينة تنس كانت ضيقة لأنّ الناس لا يعتمدون عليها كمصدر للتهوية أو الضوء حيث كان هناك الفناء الداخلي في البيوت، كما تلاصقت المباني لاستغلال المساحات المحدودة داخل المدينة أفضل استغلال.[22]

لقد كانت الأسواق التجارية تقام خارج أسوار المدينة لما تحتاجه من مساحة واسعة ولضمان نظافة وهدوء المدينة وطرقاتها، وكذلك ليسهل على أهل الأرياف والمدن المجاورة الوصول لها دون الحاجة لدخول المدينة، وليسهل نقل البضائع منها وإليها. إنّ الشوارع في مدينة تنس الإسلامية كانت تمتاز بالتواءاتها وهذا راجع لطبيعة حركة الشمس واتجاه الرياح.

إنّ الانتقال من شوارع مدينة تنس الضيقة إلى البيوت الواسعة جعل الإنسان يشعر بامتلاكه العالم بأسره وهي قيمة إنسانية جمالية مفقودة في المدن المعاصرة.

-الخاتمة:

إنّ مدينة تنس مرّت بمراحل متتابعة من التطوّر الذي انعكس على تكوينها المادي وعلى حياة مجتمعها بصورة جلية من فترة إلى أخرى، كما أنّ تخطيط مدينة تنس شمل جوانب التخطيط العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وفق الهدف الذي أنشئت من أجله المدينة، كما أنّ هذا التخطيط كان وفق أسس وقواعد عامّة شكلتها ظروف البيئة وحكمتها التجربة في تفاعل كامل مع القيم والمبادئ الإسلامية التي أطرت كل هذه العوامل التي شكلت التكوين المادي للمدينة.

وممّا سبق ذكره يتضح الارتباط الوثيق بين الحياة السياسية والحياة الاجتماعية في مدينة تنس الإسلامية وتكوينها المادي في إطار التطوّر التاريخي التي مرّت به المدينة، فهناك تأثير كبير ومتبادل بين الحياة السياسية والحياة الاجتماعية وبين التكوين المادي للمدينة.

إنّ الأمثلة السالفة الذكر عن شوارع وطرقات مدينة تنس تبرز مدى اعتناء حكّام مدينة تنس عبر العصور بأمر التهيئة العمرانية الهادفة إلى الحفاظ على كيان المدينة، وتؤكّد في الوقت نفسه أنّ الشوارع والطرقات جزء من كائن حي يتطور وفق خطة محكمة تحافظ في آن واحد على قواعدها وتخضع لمقتضيات اقتصادية واجتماعية وبيئية وعمرانية.

منظور طبّق في العديد من المدن الإسلامية التي أنشأها النسق الفكري الإسلامي (القيروان-بغداد-قابس-القاهرة...) إلا أنّ التصميم العمراني لشوارع وطرقات مدينة تنس(المتأخر عن المدن الأخرى) فاق كل التصورات آنذاك فأفرز نسيجاً عمرانياً متميّزاً عن أقرانه.

لقد برزت أهمية الشوارع والطرقات في مدينة تنس أكثر كلّما زاد الاستقرار وعمّ السلم وقلّة هجمات الأعداء والصراع الداخلي على الحكم، فتكون متنفّساً للعامّة وللباعة التجّار وممارسي الحرف بأنواعها المختلفة على حافة هذه الشوارع والطرقات. حقاً لقد كانت الشوارع والطرقات دعامة أساسية لمدينة تنس في مختلف مجالات الحياة.

– الهوامش:

1ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت، دار صادر ودار بيروت للنشر، ج05، ص86.

2نفسه، ص88.

3عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثالثة، 1984م، ص76 و87.

4الونشريسي، المصادر المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى علماء أفريقيا والأندلس، خرجة جماعة من العلماءبإشراف د. محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ج5، ص352.

5أبو القاسم بن حوقل، كتاب صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.، ص78.

6أبو عبد الله محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط 02، مطبعة بريل ليدن، 1905م، ص378.

7أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.، ص ص 61-62.

8أبو عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق، تحقيق: العربي إسماعيل، ط 02، د.م.ج.، الجزائر، 1983م، ص ص: 152-153 .

9مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص133.

10زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1984م، ص173.

11حسن الوزّان، وصف أفريقيا، تر: محمد حجي ومجد الأصغر، ط 02، ج 02، د.غ.أ. بيروت، 1983م، ص36.

12كارباخالمارمول، أفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، ج 02، دار نشر المعرفة، الرباط، 1988م، ص354.

13المراكشي، المغرب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، القاهرة، سنة 1949م،ص266.

14P. RICARD, Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne, Libraire Hachette, Paris : 1924, p.221.

15ج. بيرتون بيج، البرج في العمارة الإسلامية الحربية، تر: إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت،1981، ص42.

16جاك س ويسلر، الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون، ص155.

17نفسه، ص158.

18هو من يجلس في الطرقات ويذكر شيئاً من الآيات والأحاديث وأخبار السلف (السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص162).

19المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، ص122.

20فريد شافعي، العمارة الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، سنة 1982م، ص35.

21محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، القاهرة، 1990م، ص252.

22نفسه، ص278.

- المصادر والمراجع:

- باللغة العربية:

-الإدريسي، أبو عبد الله، نزهة المشتاق، تحقيق: العربي إسماعيل، ط02، د.م.ج.، الجزائر، 1983م.

- البكري، أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت..

- ابن حوقل، أبو القاسم، كتاب صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، د. ت..

- بيج، جورج بيرتون، البرج في العمارة الإسلامية الحربية، تر: إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981.

- حموي، ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت، دار صادر ودار بيروت للنشر، ج05.

- شافعي فريد، العمارة الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، سنة 1982م.

- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1984م.

- الدوري عبد العزيز، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثالثة، 1984م.

- ويسلر، جاك س، الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون.

- مارمولكارباخال، أفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، ج 02، دار نشر المعرفة، الرباط، 1988م.
- المراكشي، المغرب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، القاهرة، سنة 1949م.
- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.
- المقدسي، أبو عبد الله محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط02، مطبعة بريل ليدن، 1905م.
- عثمان، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، 1990م.
- الونشريسي، المصادر المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى علماء أفريقيا والأندلس، خرجة جماعة من العلماء بإشراف د. محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ج05.
- الوزّان حسن، وصف أفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأصغر، ط02، ج02، د.غ.أ. بيروت، 1983م.

- باللغة الأجنبية:

- P. RICARD, Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne, Libraire Hachette, Paris : 1924.